

تعبد النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء ونزول الوحي عليه

(ثم حب إلية الخلاء) الخلوة، حب إلية أن يخلو ويتبعده، (فكان يخلو بغار حراء ويتحصن فيه وهو التعبد) التحصن هو التعبد؛ بمعنى أنه يصعد إلى ذلك الجبل المعروف بغاره وفي قمة الجبل غار موجود، هذا الغار فيه ظل فيكون في ذلك الغار، ويترزد؛ يأخذ معه زاداً من الطعام ونحوه، ويمكن أنه أيضًا يحمل معه ماء أو ينزل مطر فيستنقع هناك فيشرب منه، يتحصن فيه الليلي ذوات العدد، التحصن التعبد، يمكن أن تعبده بالذكر أو بالأفكار، يكثر ذكر الله تعالى ويفكر؛ يتفكير في خلق الله، ويفكر في آياته، وهذا من التحصن الذي هو التعبد، يمكن على ذلك أسبogaً أو خمسة أيام أو نحو ذلك، ثم يرجع ويترزد بمثلها، يأخذ زاداً ثم يرجع، وتحبب إليه الخلوة هنالك. مازال كذلك حتى فجأه الحق وهو في غار حراء؛ يعني نزل عليه الوحي لأول مرة، حيث جاءه الملك، يمكن أنه جاءه في صورة إنسان، فلما جاءه قال له: أقرأ، يعني أمره بالقراءة، وكان صلى الله عليه وسلم لا يقرأ ولا يكتب، فقال: { ما أنا بقارئ } أي لست أحسن القراءة؛ لأن الله تعالى اختار أين يكون أمياً لا يقرأ ولا يكتب؛ حتى لا يقول الأعداء إنه نسخ هذا القرآن من كتب من قبله كما قالوا: { أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنْرَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السَّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } فقال الله تعالى: { وَمَا كُنْتَ تَلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تُحْكَمُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَرَنَّابَ الْمُبْطَلُونَ } يعني لو كنت تخطه أو تكتب أو تقرأ في الكتب لاتهموك بأن هذا القرآن أخذته من كتب الأولين؛ ولكن حيث كان لا يقرأ ولا يكتب وجاء بهذا القرآن العظيم الذي لا يمكن أن يحفظه و يأتي به أحد إلا من الله دل على أنه وحي من الله. فالحاصل أن الملك قال له: أقرأ. فقال: ما أنا بقارئ أي لا أحسن القراءة، ثم إنه غطه؛ يعني غمه وغض نفسه حتى يقول: بلغ مني الجهد. يعني أجهدني بصيق النفس، يقول: فارسلني. يعني ترکني فقال: أقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. يعني لا أحسن القراءة، هذه المرة الثانية، فيقول: ثم غطني الثالثة أو الثانية فقال بعدما بلغ منه الجهد أرسلني فقال: { أَقْرَا بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } قرأ عليه أول هذه السورة إلى قوله: { أَقْرَا وَرِبِّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمَ عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } فهذه أول ما نزل عليه أول هذه السورة. وفيها دليل على أن الله تعالى هو الذي علم الإنسان، وهو الذي خلقه، أشير في هذه الآية إلى أنه الخالق سبحانه، { أَقْرَا بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }؛ يعني الخالق وحده الذي { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلْقَ }؛ يعني ابتدأ خلق الإنسان من العلقة، العلقة هي هذه النطفة التي تعلق في الرحم، أو التي هي مثل العلقة القطعة من آدم، يعني كان مبدأ خلقه من النطفة، ثم إن النطفة تكون علقة أي قطعة من الدم تتعلق أي تلتتصق بالرحم، هذا مبدأ خلقه، كأنه يقول: تذكر أن ربك الذي خلق الإنسان، وابتدأ خلقه من هذه العلقة، وتذكر بعد ذلك أن ربك هو { الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمَ } يعني ألهم الإنسان أن تعلم هذه الكتابة وهذه القراءة، الكتابة بالقلم، ثم قراءة ما يكتب بالقلم، { عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } ألهمه عدد هذه الحروف التي يتكلم بها، وبعد ذلك ألهمه أن جعل لكل حرف صورة، ثم يوصل بعض الحروف ببعض إلى أن تتنطبق بها كلمة إذا قرأ بها، إذا قرأها قرأ الكلام الذي يتكلم به. لا شك أن هذا دليل على فضل الكتابة وعلى فضل القراءة، حيث افتح الله تعالى هذه السورة بالأمر بالقراءة مرتين (اقرأ) وكذلك على فضل الكتابة، وأن الله تعالى هو الذي ألهم الإنسان وعلمه هذه الكتابة، فعلمه ما لم يكن يعلم، لو لا أن الله ألهمه ما تعلم ذلك، وفيه فضل العلم وفضل التعلم، وأن تعلم الكتابة والقراءة من مبادئ العلم.